

## من فوائد الرحمة

- 1 — سعة رحمة الله تعالى، حتى إنها تسع كل شيء.
  - 2 — الذي يستحق رحمة الله تعالى إلا الرحمون الموفقون.
  - 3 — تنمر محبة الله ومحبة الناس.
  - 4 — الرحمة في الإسلام عامة وشاملة لا تخص أحدا دون أحد، ولا نوعا دون نوع.
  - 5 — من آثار رحمة الله تعالى إنزال المطر، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وغفران الذنوب، والإبتلاء بشئى المصائب والعيوب.
  - 6 — الاجتماع على الحق دليل الرحمة، والافتراق دليل الشقاء.
  - 7 — الجنة هي دار الرحمة لا يدخلها إلا الراحمون برحمة الله.
  - 8 — برحمة الله تعالى يوفق العبد لترك المعاصي، ونيل الدرجات.
  - 9 — التعويل عليها لا على كثرة العمل.
  - 10 — إشاعة الرحمة بين أفراد المجتمع ترفع من مستواه وتجمع شمله.
  - 11 — الرأفة والرحمة قرينة، كما في قصة سليمان عليه السلام:
- وكذلك فعل نبي الله سليمان بن داود في استدلاله بالقرينة على تعيين أم الطفل الذي ذهب به الذئب وادعت كل واحدة من المرأتين أنه ابنها، واختصمتا في الآخر فقضى به داود للكبرى فخرجتا إلى سليمان فقال: بم قضى بينكما نبي الله فأخبرتا، فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينكما، فقالت الصغرى: لا تفعل رحمك الله هو ابنها، فقضى به للصغرى، فاستدل بقرينة الرحمة والرأفة التي في قلبها وعدم وسماحة الأخرى بذلك لتصير أسوفا في فقد الولد على أنه ابن الصغرى. زاد المعاد ج3 ص146.

التوبة:

فالتوبة من الله تعالى الرجوع على عبده بالرحمة والتوفيق، والتوبة من العبد الرجوع عن المعصية والندم على الذنب مع تركه فيما يستأنف.

والتواب للمبالغة والتكثير، وفي قوله تعالى: (هو التواب) تأكيد فائدته، أن التوبة على العبد إنما هي نعمة من الله تعالى، لا من العبد وحده لئلا يعجب النائب، بل الواجب عليه شكر الله تعالى في توبته عليه<sup>(1)</sup>.

فإن الله التواب الرجّاع على عباده بالمغفرة، الرجّاع عن العقاب إلى المغفرة، الذي يكثر إيعانهم على التوبة، فآدم عليه السلام النائب هو الراجع عن المعصية، فالله هو الرحيم المبالغ في الرحمة، وهذا وعد بليغ لآدم عليه السلام ولمن تاب بالإحسان، مع العفو والغفران، والرحمة العظيمة.

وفي هذه الجملة الاسمية ما يقوي رجاء المذنبين، ويجبر كسر قلوب الخاطئين، حيث افتتحها بـ(أن) وأتى بضمير الفصل، وعرف المسند، وأتى به من صيغ المبالغة، إشارة إلى قبول التوبة كلما تاب العبد، ويحتمل أن ذلك لكثرة من يتوب عليهم. بسم الله:

وقد وجهنا الرسول ﷺ أن نذكر اسم الله، إذا عثرت الدابة بأحد، بدلا من قول تعس الشيطان، فعن أبي تميم الهجيمي عن ردف النبي ﷺ أو من حدّته عن ردف النبي ﷺ أَنَّهُ كَانَ رَدْفُهُ فَعَثَرَتْ بِهِ دَابَّتُهُ، فَقَالَ: تَعَسَ الشَّيْطَانُ، فَقَالَ: (لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّهُ يَتَعَاظِمُ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الْجَبَلِ، وَيَقُولُ: بِقُوَّتِي صَرَعْتُهُ، وَإِذَا قُلْتَ: بِسْمِ اللَّهِ، تَصَاغَرَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ)<sup>(2)</sup>.

شعيب عليه السلام:

قال سيد قطب:

ومن ثم تبدو علاقة عقيدة التوحيد والدينونة لله وحده بالأمانة والنظافة وعدالة المعاملة وشرف الأخذ والعطاء، ومكافحة السرقة الخفية، سواء قام بها الأفراد أم قامت بها الدول، فهي بذلك ضمان حياة إنسانية أفضل، وضمانة للعدل والسلام في الأرض بين الناس، وهي الضمانة الوحيدة التي تستند إلى الخوف من الله وطلب رضاه، فتستند إلى أصل ثابت، لا يتأرجح مع المصالح والأهواء..<sup>(3)</sup>!

<sup>1</sup> - الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، 53/1 - 54، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، تحقيق/ عبد القادر عرفات العشا حسونة، ط2، 1416هـ/1996م.

<sup>2</sup> - المسند، الإمام أحمد بن حنبل، 22013 باقي مسند الأنصار، دار الفكر - بيروت، 1411هـ / 1991م.

<sup>3</sup> - في ظلال القرآن، سيد قطب، 4/ 1917.

إن هذه أمتكم أمة الأنبياء، أمة واحدة تدين بعقيدة واحدة تنهج منهاج واحد، هو الاتجاه إلى الله دون سواه، أمة واحدة في الأرض، ورب واحد في السماء، لا إله غيره ولا معبود إلا إياه، أمة واحدة وفق سنة واحدة، تشهد بالإرادة الواحدة في الأرض والسماء<sup>(4)</sup>.

( وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ )<sup>(5)</sup>:

والإشارة للعبدين .مناسبة البلاء، إشارة لها مغزاها، فالعابدون معرضون للابتلاء والبلاء، وتلك تكاليف العبادة، وتكاليف العقيدة، وتكاليف الإيمان، والأمر جد لا لعب، والعقيدة أمانة لا تسلم إلا للأمناء القادرين عليها، المستعدين لتكليفها وليست كلمة تقولها الشفاه، ولا دعوى يدعيها من يشاء، ولا بد من الصبر ليجتاز العابدون البلاء<sup>(6)</sup>..

وقال القرطبي: وآتيناه أهله في الآخرة مثلهم معهم في الدنيا، وفي الخبر إن الله بعث إليه جبريل عليه السلام حين ركض برجله على الأرض ركضة فظهرت عين ماء حار وأخذ بيده ونفضه نفضة فتناثرت عنه الديدان، وغاص في الماء غوصة فنبت لحمه وعاد إلى منزله، ورد الله عليه أهله ومثلهم معهم، ونشأت سحابة على قدر قواعد داره فأمطرت ثلاثة أيام بلياليها جرادا من ذهب، فقال له جبريل: أشبعت؟ فقال: من يشبع من فضل الله، فأوحى الله إليه: قد أثنت عليك بالصبر قبل وقوعك في البلاء وبعده، ولولا أني وضعت تحت كل شعرة منك صبيرا ما صبرت، (رحمة من عندنا) أي فعلنا ذلك به رحمة من عندنا، وقيل: ابتليناه ليعظم ثوابه غدا، (وذكرى للعبدين) أي وتذكيرا للعباد لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب وصبره عليه، ومحتته له وهو أفضل أهل زمانه وطنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا، نحو ما فعل أيوب فيكون هذا تنبيها لهم على إدامة العبادة واحتمال الضرر<sup>(7)</sup>.

فأما قسمه ليضربن زوجه، فرحمة من الله به وبزوجه التي قامت على رعايته، وصبرت على بلائه وبلائها به، فأمره الله أن يأخذ مجموعة من العيدان، بالعدد الذي حدده،

4 - في ظلال القرآن، سيد قطب، 4/ 2395,2396، دار الشروق - بيروت، ط6، 1410هـ/1990

5 - الأنبياء 84.

6 - في ظلال القرآن، سيد قطب، 4/ 2392.

7 - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 11/ 326 - 327.

فيضربها به ضربة واحدة، تجزيء عن يمينه ، فلا يحنث فيها<sup>(8)</sup>: ﴿وَاِذَا جَاءَ بِكَ الرَّحْمَةُ فَاصْبِرْ بِهٖ وَلَا تَحْنَتْ﴾<sup>(9)</sup>..

قصة زكريا ويحيى، والرحمة قوامها، والرحمة تظللها، ومن ثم يتقدمها ذكر الرحمة: ذكر رحمة ربك عبده زكريا<sup>(10)</sup>..

ويعلق سيد رحمه الله في الظلال على هذه الآيات بقوله: والظل الغالب في الجو هو ظل الرحمة والرضى والاتصال، فهي تبدأ بذكر رحمة الله لعبده زكريا، (ذكر رحمة ربك عبده زكريا) وهو يناجي ربه نجاء: إذ نادى ربه نداء خفياً.. ويتكرر لفظ الرحمة ومعناها وظلها في ثانيا السورة كثيرا، ويكثر فيها اسم الرحمن... وإنك لتحس لمسات الرحمة الندية ودبيها اللطيف في الكلمات والعبارات والظلال... ذكر رحمة ربك عبده زكريا، إذ نادى ربه نداء خفياً<sup>(11)</sup>...

وقال عبد الله بن مسعود: اقرؤوا القرآن قبل أن يرفع فإنه لا تقوم الساعة حتى يرفع، قيل هذه المصاحف ترفع فكيف بما في صدور الناس؟ قال: يسرى عليه ليلا فيرفع ما في صدورهم فيصبحون لا يحفظون شيئا ولا يجدون في المصاحف شيئا، ثم يفيضون في الشعر، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل له دوي حول العرش كدوي النحل، فيقول الرب: ما لك.. وهو أعلم، فيقول: يا رب أتلى ولا يعمل بي<sup>(12)</sup>.

فمعناه أنه أخذها عنه، وقيل فتلقى آدم من ربه كلمات: أي تعلمها ودعا بها<sup>(13)</sup>. قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾<sup>(14)</sup>. والعذاب الذي يتوعد به النبي أمته إذا حضر، ينجي الله منه النبي والمؤمنين معه، نعم.. لا يبعد أن يتلى الله نبياً وقومه فيعمهم بلاء، فيكون ذلك عقوبة للكافرين، وتمحيصاً للمؤمنين، إذا لم يكن مما توعدهم النبي به.

<sup>8</sup> - انظر في ظلال القرآن، سيد قطب، 4 / 3022.

<sup>9</sup> - ص (44).

<sup>10</sup> - في ظلال القرآن، سيد قطب، 4 / 3200 - 3201.

<sup>11</sup> - في ظلال القرآن، سيد قطب، 4 / 3200 - 3201.

<sup>12</sup> - معالم التنزيل، البغوي، 3 / 135.

<sup>3</sup> - لسان العرب، لابن منظور، 15 / 256.

<sup>14</sup> - هود (27).

صالح: وقيل: أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم في صدورهم، وإنما قال: (أخذ) والصيحة مؤنثة، لأن الصيحة بمعنى الصياح، فأصبحوا في ديارهم جاثمين صرعى هلكى<sup>(15)</sup>.

التوراة كانت رحمة: (فلما ذهب عن موسى الغضب، أخذ الألواح التي كان ألقاها من شدة الغضب، على عبادتهم العجل غيرة لله وغضبا له، قال في التيسير: وفيها الهدى من الضلالة، وبيان الحق من الباطل، وأعمال الخير وأعمال الشر، والهدى لأحسن الأعمال والأخلاق والآداب، ورحمة وسعادة لمن عمل بها وعلم أحكامها ومعانيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هدى الله ورحمته!، وإنما يقبل ذلك وينقاد ذلك له ويتلقاه بالقبول الذين يخافون منه ويخشونه، وأما من لم يخف الله ولا المقام بين يديه فإنه لا يزداد بها إلا عتوا ونفورا وتقوم عليه حجة الله فيها)<sup>(16)</sup>.

فكان من صبر أيوب عليه السلام أن رحمه الله تعالى، قال سيد قطب: (والمهم في معرض القصص هنا هو تصوير رحمة الله وفضله على عباده الذين يتلهم فيصبرون على بلائه وترضى نفوسهم بقضائه).

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عُمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا<sup>(17)</sup>، وقال النسفي<sup>(18)</sup>: وكان الله غفورا رحيمًا بالتوسعة على عباده<sup>(19)</sup>.

الأمانة: قيل أنه تعالى لما خلق هذه الأجرام، خلق فيها فهما وقال لها: أبي فرضت فريضة، وخلق جنة لمن أطاعني فيها، ونارا لمن عصاني، فقلن: نحن مسخرات على ما

<sup>15</sup> - انظر معالم التنزيل، الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي، 391/ 2، إعداد وتحقيق: خالد عبد الرحمن العك، مروان سوار، دار المعرفة - بيروت، ط2، 1407هـ / 1987م.

<sup>16</sup> - النظر تيسير الكريم الرحمن، في تفسير كلام المنان، السعدي، 304/1.

<sup>17</sup> - الأحزاب (50).

<sup>18</sup> - النسفي: هو عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي أبو البركات، فقيه أصولي مفسر متكلم، توفي عام 710هـ في بلدة إيدج - بلدة بين خرسان وأصبهان، من تصانيفه عمدة العقائد، ومدارك التنزيل وغيرها، انظر (معجم المؤلفين، لرضا عمر كحالة، 228/2، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط1، 1414هـ/1993م).

<sup>19</sup> - مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، 311/ 3.

خلقتنا، لا نَحْتَمِلُ فريضة ولا نبغي ثوابا ولا عقابا، ولما خلق آدم عرض عليه مثل ذلك، فحمله وكان ظلوما لنفسه، بتحمله ما يشق عليها، جهولا بوحامة عاقبته... وكونه ظلوما جهولا لما غلب عليه من القوة الغضبية والشهوية، وعلى هذا يحسن أن يكون علة للحمل عليه، فإن من فوائد العقل أن يكون مهيمنا على القوتين، حافظا لهما عن التعدي ومجاوزه الحد، (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) تعليل للحمل من حيث أنه نتيجه، كالتأديب للضرب في ضربته تأديبا.

الأعراب: ص 85: وصفهم الله بأن أكثرهم لا يعقلون، وكره إليهم النداء على هذه الصفة المنافية للأدب والتوقير اللائق بشخص النبي ﷺ، وحرمة رسول الله القائد والمربي، وبيّن لهم الأولى والأفضل، وهو الصبر والانتظار حتى يخرج إليهم، وحبّ إليهم التوبة والإنابة، ورغبهم في المغفرة والرحمة<sup>(20)</sup>.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (19) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ<sup>(21)</sup> قال السعدي: وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه قل لهم إن حصل معهم ريب وشك في الابتداء، سيروا في الأرض بأبدانكم وقلوبكم، فانظروا كيف بدأ الخلق، فإنكم ستجدون أمما من الآدميين، لا تزال توجد شيئا فشيئا، وتجدون النبات والأشجار كيف تحدث وقتا بعد وقت، وتجدون السحاب والرياح ونحوها مستمرة في تجددها، بل الخلق دائما في بدء وإعادة، فانظروا إليهم وقت موتهم الصغرى — النوم — وقد هجم عليهم الليل بظلامه، فسكنت منهم الحركات، وانقطعت منهم الأصوات، وصاروا في فرشهم ومأواهم كالميتين، ثم إنهم لم يزالوا على ذلك طول ليلهم، حتى تنفلق الأصباح، فانتبهوا من رقدتهم، وبعثوا من موتتهم، قائلين: الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النشور، ولهذا قال: (ثم الله) بعد الإعادة، (ينشئ النشأة الآخرة)، وهي النشأة لا تقبل موتا ولا نوما، وإنما هو

<sup>20</sup> - في ظلال القرآن، سيد قطب، 6 / 3340.

<sup>21</sup> - العنكبوت (19 - 20 - 21).

الخلود والدوام في إحدى الدارين، (إن الله على كل شيء قدير)، فقد رتبته تعالى لا يعجزها شيء، وكما قدر بها على ابتداء الخلق، فقد رتبته على الإعادة من باب أولى وأحرى<sup>(22)</sup>.

أي إنما يختبر عباده بالخوف والزلال، ليميز الخبيث من الطيب، فيظهر أمر هذا بالفعل، وأمر هذا بالفعل، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم، حتى يعملوا بما يعلمه منهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُبَلِّغُكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾<sup>(23)</sup>، فهذا علم بالشيء بعد كونه، وإن كان العلم السابق حاصلًا به قبل وجوده، وكذا قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(24)</sup>، ولهذا قال تعالى ها هنا.

{ }

عن ابن إسحاق قال: (لا تثريب عليكم اليوم) أي لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتكم، وعن ابن إسحاق يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين حيث اعترفوا بذنبهم<sup>(25)</sup>.

ف2م 5: فَاْمَنُوا بِنَبِيِّ لَا اَبَا لَكُمْ  
ذِي خَاتَمٍ صَاغَهُ الرَّحْمَنُ مَخْتُومٌ  
رَأْفٌ رَحِيمٌ بِأَهْلِ الْبَرِّ يَرْحَمُهُمْ  
مَقْرَبٌ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَرْحُومٌ

طبقات المفسرين - السيوطي 61/1، رقم الترجمة 50.

ابن الجوزي: هو عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله البكري من ولد الإمام أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه الإمام أبو الفرج ابن الجوزي (508هـ/ 597 هـ)، البغدادي الحنبلي الواعظ صاحب التصانيف المشهورة في أنواع العلوم من التفسير والحديث والفقه والوعظ والزهد والتاريخ وغير ذلك، قال الذهبي: كان مبرزًا في التفسير وفي الوعظ وفي التاريخ ومتوسطًا في المذهب وفي الحديث له إطلاع تام على متونه وأما الكلام على صحيحه وسقيمه فما له فيه ذوق المحدثين ولا نقد الحفاظ المبرزين، ولد تقريبًا سنة ثمان أو عشر وخمسمائة، وتوفي سنة 597هـ، انظر (طبقات المفسرين - السيوطي 61/1، رقم الترجمة 50).

الترمذي: واسمه محمد بن عيسى بن سورة وله من الكتب كتاب التاريخ كتاب الصحيح كتاب العلل، انظر (الفهرست - ابن النديم، 325/1).

((وجعلها تبارك وتعالى رحمة للمؤمنين بدون الكافرين به، لأنه من كفر به فهو عليه عسى، وفي الآخرة جزاؤه على الكفر به، الخلود في لظى<sup>(26)</sup>)).

<sup>22</sup> - تيسير الكريم الرحمن، السعدي، 628/1-629.

<sup>23</sup> - محمد (31).

<sup>24</sup> - آل عمران (179).

<sup>25</sup> - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 9 / 71.

<sup>26</sup> - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 11 / 124.

## الرحمن:

— من آثار رحمة الله الواسعة تعليمه القرآن:

من أعظم النعم شأننا وأرفعها مكانا، أن الله سبحانه علم القرآن، ولأن تتزيل القرآن من أحكام رحمته، وخاصة عندما أسند تعليمه إلى اسم الرحمن للإذعان بأنه من آثار رحمته الواسعة وأحكامها.

﴿الرحمن علم القرآن﴾<sup>(27)</sup>، إنه الله تعالى يسره لأن يذكر، هذه أول آية بدئت بها سورة الرحمن.

قال البيضاوي: ولما كانت السورة مقصورة على تعداد النعم الدنيوية والآخروية، صدرها — (الرحمن)، وقدم ما هو أصل النعم الدينية وأجلها، وهو إنعامه بالقرآن وتزييله وتعليمه، فإنه أساس الدين، ومنشأ الشرع، وأعظم الوعي، وأعز الكتب، إذ هو بإعجازه واشتماله على خلاصتها، مصدق لنفسه ومصدق لها<sup>(28)</sup>.

و ﴿الرحمن علم القرآن﴾ قال القرطبي: وقال العلماء: الرحمن فاتحة ثلاث سور إذا جمعن كن إسم من أسماء الله تعالى (الر) و (حم) و (ن) فيكون مجموع هذه السور الرحمن، ﴿الرحمن علم القرآن﴾ أي علمه نبيه ﷺ، حتى أتاه إلى جميع الناس، وأنزلت حين قالوا: وما الرحمن؟ وقيل: نزلت جوابا لأهل مكة، حين قالوا إنما يعلمه بشر، وهو رحمن اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب، فأنزل الله تعالى: ﴿الرحمن علم القرآن﴾، وقال الزجاج: معنى علم القرآن أي سهله لأن يذكر ويقرأ كما قال: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾ وقيل جعله علامة لما تعبد الناس به<sup>(29)</sup>، فافتتح السورة باسم الرحمن من بين الأسماء، ليعلم العباد أن جميع ما يصفه بعد هذا من أفعاله، ومن ملكه وقدرته، خرج إليهم من الرحمة العظمى، من رحمانيته فقال: ﴿الرحمن علم القرآن﴾<sup>(30)</sup>.

وقال الطبري: يقول تعالى: الرحمن أيها الناس برحمته إياكم علمكم القرآن، فأنعم بذلك عليكم إذ بصركم به ما فيه رضا ربكم، وعرفكم ما فيه سخطه، لتطيعوه باتباعكم

27 - الرحمن (1).

28 - تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، 5 / 272.

29 - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 17 / 152.

30 - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 17 / 159.



ما يرضيه عنكم، وعملكم بما أمركم به، وتجنبكم ما يسخطه عليكم، فتستوجبوا بذلك جزيل ثوابه، وتنجوا من أليم عقابه<sup>(31)</sup>.

وفيه إشارة إلى أن تنزيل القرآن أيضا، من أحكام رحمته تعالى.<sup>(32)</sup>

الرحمن لما عد في سورة القمر ما نزل بالأمم السالفة من ضروب نقم الله عز وجل، وبين عقيب كل ضرب منها، أن القرآن قد يسر لحمل الناس على التذكر والأتعاض، ونعى عليهم إعراضهم عن ذلك، عدد في هذه السورة الكريمة — سورة الرحمن — ما أفاض على كافة الأنام من فنون نعمه الدينية، والدنيوية والأنفسية والآفاقية، وأنكر عليهم أثر كل فن منها إخلالهم بمواجب شكرها، وبدأ بتعليم القرآن ف قيل: ﴿الرحمن علم القرآن﴾ لأنه أعظم النعم شأنا وأرفعها مكانا، كيف لا وهو مدار للسعادة الدينية والدنيوية، ما من مرصد يرنو إليه أحداق الأمم، إلا وهو منشؤه ومناطه، ولا مقصد يمتد إليه أعناق المهمم، إلا وهو منهجه وصراطه، وإسناد تعليمه إلى اسم الرحمن، للإيذان بأنه من آثار الرحمة الواسعة وأحكامها، وقد اقتصر على ذكره تنبيها على أصالته وجلالة قدره<sup>(33)</sup>.

والفرق بين الإخبار بالحال، وبين الشكوى وإن اشتبهت صورتها، أن الإخبار بالحال يقصد المخبر به قصدا صحيحا من علم سبب إدانته، أو الاعتذار لأخيه من أمر طلبه منه، أو يحذره من الوقوع في مثل ما وقع فيه، فيكون ناصحا بإخباره له، أو حملة على الصبر بالتأسي به، كما يذكر عن الأحنف أنه شكا إليه رجل شكوى فقال: يا ابن أخي لقد ذهب ضوء عيني من كذا وكذا سنة فما أعلمت به أحدا، ففي ضمن هذا الإخبار من حمل الشاكي على التأسي والصبر ما يثاب عليه المخبر، وصورته صورة الشكوى، ولكن القصد ميز بينهما، ولعل من هذا قول النبي ﷺ لما قالت عائشة: وارأساه، فقال: بل أنا وارأساه، أي الوجد القوي بي أنا دونك فتأسي بي فلا تشتكي، ويلوح لي فيه معنى آخر وهو أنها كانت حبيبة رسول الله ﷺ بل كانت أحب النساء إليه على الإطلاق، فلما اشتكت إليه رأسها، أخبرها أن بمحبها من الألم، مثل الذي بها، وهذا غاية الموافقة من الحب ومحبوته، يتألم بتألمه، ويسر بسروره، حتى إذا ألمه عضو من أعضائه، ألم الحب ذلك

31 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري 27 / 114.

32 - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود، 6 / 5.

33 - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود، 8 / 176.

العضو بعينه، وهذا من صدق المحبة وصفاء المودة، فالمعنى الأول يفهم أنك لا تشتكي واصبري فبي من الموجه مثل ما بك، فتأسى بي في الصبر وعدم الشكوى، والمعنى الثاني يفهم إعلامها بصدق محبته لها أي انظري قوة محبتي لك كيف واسيتك في ألمك، ووجع رأسك، فلم تكوني متوجعة، وأنا سليم من الوجع، بل يؤلمني ما يؤلمك، كما يسرني ما يسرك، كما قيل:

وإن أولى البرايا من تواسيه \* عند السرور الذي واساك في الحزن

وأما الشكوى فالإخبار العاري عند القصد الصحيح، بل يكون مصدره السخط وشكاية المبتلي إلى غيره، فإن شكا إليه سبحانه وتعالى لم يكن ذلك شكوى بل استعطاف وتملق واسترحام له، كقول أيوب: (ربي أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) وقول يعقوب: (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله)، وقول موسى: (اللهم لك الحمد وإليك المشتكى، وأنت المستعان وبك المستعاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك)، وقول سيد ولد آدم: (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل علي غضبك أو يزل بي سخطك، لك العتي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك)، فالشكوى إلى الله سبحانه لا تنافي الصبر بوجهه، فإن الله تعالى قال عن أيوب: (إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب) مع إخباره عنه بالشكوى إليه في قوله: (مسي الضر)، وأخبر عن نبيه يعقوب أنه وعد من نفسه بالصبر الجميل، والني إذا قال وفي مع قوله: (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله)، ولم يجعل ذلك نقصا لصبره، ولا يلتفت إلى غير هذا من ترهات القوم، كما قال بعضهم لما قال: مسني الضر قال تعالى: إنا وجدناه صابرا، ولم يقل: صبرا، حيث قال مسني الضر، وقال بعضهم لم يقل: ارحمني، وإنما أرحم الراحمين، فلم يزد على الإخبار بحاله ووصف ربه، وقال بعضهم: إنما شكا مس الضر حين ضعف لسانه عن الذكر، فشكا مس ضر ضعف الذكر، لا ضر المرض والألم، وقال بعضهم: استخرج منه هذا القول ليكون قدوة للضعفاء من هذه الأمة، وكأن هذا القائل رأى أن الشكوى إلى الله تنافي الصبر، وغلط

أقبح الغلط، فالمنافي للصبر شكواه لا الشكوى إليه، فالله يتلى عبده ليسمع تضرعه ودعائه، والشكوى إليه، ولا يحب التجلد عليه، وأحب ما إليه انكسار قلب عبده بين يديه، وتذلل له وإظهار ضعفه وفاقة وعجزه وقلة صبره، فاحذر كل الحذر من إظهار التجلد عليه، وعليك بالتضرع والتمسكن، وإبداء العجز والفاقة والذل والضعف، فرحمته أقرب إلى هذا القلب من اليد للفم<sup>(34)</sup>.

وفي مدارج السالكين يقول ابن القيم: والشكوى إلى الله عز وجل لا تنافي الصبر، فإن يعقوب عليه السلام وعد بالصبر الجميل، والنبي إذا وعد لا يخلف، ثم قال: (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله)، وكذلك أيوب أخبر الله عنه: أنه وجد صابرا مع قوله: (مسي الضر وأنت أرحم الراحمين).

وإنما ينافي الصبر شكوى الله، لا الشكوى إلى الله، كما رأى بعضهم رجلا يشكو إلى آخر فاقه وضرورة فقال: يا هذا تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك ثم أنشد:

وإذا عـررتك بلية فاصبر لها \* صبر الكريم فإنه بك أعلم

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما \* تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم.<sup>(35)</sup>

ثم قال سيد: فإذا سمع المسلمون هذا، أحسوا مدى النعمة وقيمة المنة في اختيار الله لهم، واختصاصه إياهم بهذا الفضل، واستمسكوا به في إعزاز وحرص، وأخذوه بقوة وعزم، ودافعوا عنه في صرامة ويقين، وتيقظوا لكيد الكائدين وحقد الحاقدين، وهذا ما كان يريهم به القرآن الكريم والذكر الحكيم، وهو ذاته مادة التربية والتوجيه للأمة المسلمة في كل جيل<sup>(36)</sup>. ص 223 - ف 5.

<sup>34</sup> - الروح في الكلام عن أرواح الأموات والأحياء، ابن القيم، 1 / 258 - 260، دار الكتب العربية - بيروت، 1395هـ/1975م.

<sup>35</sup> - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم، 2 / 161، دار الكتاب العربي - بيروت، تحقيق: محمد حامد الفقي، يوسف أحمد البكري، شاعر توفيق العاروري، ط2، 1393هـ/1973م.

36 - في ظلال القرآن، سيد قطب، 1/ 416 - 417.

## تفسير السعدي ج 1/ص 748

قال في التيسير: يخبر تعالى عن أوليائه وفي ضمن ذلك تنشيطهم والحث على الاقتداء بهم، فقال إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا أي اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية الله تعالى واستسلموا لأمره ثم استقاموا على الصراط المستقيم علما وعملا فلهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة تنزل عليهم الملائكة الكرام أي يتكرر نزولهم عليهم مبشرين لهم عند الاحتضار ألا تخافوا على ما يستقبل من أمركم ولا تحزنوا على ما مضى فنفوا عنهم المكروه الماضي والمستقبل وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون فإنها قد وجبت لكم وثبتت وكان وعد الله مفعولا ويقولون لهم أيضا — مثبتين لهم ومبشرين — نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة يحثوهم في الدنيا على الخير ويزينونه لهم ويرهبوهم عن الشر ويقبحونه في قلوبهم ويدعون الله لهم ويشبثوهم عند المصائب والمخاوف وخصوصا عن الموت وشدته والقبر وظلمته وفي القيامة وأهوالها على الصراط وفي الجنة يهنتوهم بكرامة ربهم ويدخلون تفسير السعدي ج 1/ص 749

عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ويقولن لهم أيضا ولكم فيها أي في الجنة ما تشتهي أنفسكم قد أعد وهبىء ولكم فيها ما تدعون أي تطلبون من كل ما تتعلق به إرادتكم وتطلبونه من أنواع اللذات والمشتهيات مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر نزلا من غفور رحيم أي هذا الثواب الجزيل والنعيم المقيم نزل وضيافة من غفور غفر لكم السيئات رحيم حيث وفقكم لفعل الحسنات ثم قبلها منكم فبمغفرته أزال عنكم المحذور وبرحمته أنالكم المطلوب.

وتضيف الملائكة قائلة: اهتثوا وافرحوا بحصولكم على الجنة، التي وعدكم الله بها بسبب إيمانكم به واستقامتكم، نحن أعوانكم ونصراؤكم في الحياة الدنيا، نلهمكم الحق ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة، نؤنس منكم الوحشة في القبور وعند النفخة في الصور، ونمدكم بالشفاعة ونوصلكم إلى

جنات النعيم، ولكم في الجنة جميع ما تختارون، مما تشتهي نفوسكم وتقر به أعينكم، ولكم في الجنة ما تتمنون وتطلبون، وإن الأشياء التي تقدم لكم في الآخرة مما تشتهي أنفسكم هي ضيافة وعطاء وإنعام من رب غفور لذنوبكم رحيم بكم.

هذا كله جزاء الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا، إنهما كلمتان تجمعان معاني الإسلام اعتقاداً وعملاً، لأن الإسلام هو توحيد الله وطاعته، فالتوحيد حاصل بالجملة الأولى: (قالوا: ربنا الله) والطاعة بجميع أنواعها حاصلة بالجملة الثانية: (ثم استقاموا) لأن الاستقامة امتثال كل مأمور به من الله واجتناب كل منهي عنه<sup>(37)</sup>،